ملف
٤

الحكاية وأبواب الغياب

الياس خوري

غريب هو الموت، نقبله من دون تردد. يأتي وذاكرته تسبقه. كأن الذاكرة ابنة الموت، فجأة ومن دون مقدمات نتعامل مع الراحلين وكأنهم حكايات. ونبدأ في سرد الذكريات عنهم. الحكاية هي بديل القبر أو نقيضه. القبر ساكن وغامض ومجهول، يكتبه الصمت بمحاة الكلمات، أما الحكاية فلا نهاية لها إلا باختفاء رواتها والمستمعين إليها. ومع الكتابة صارت الحكاية عصية على الامحاء، إذ إنها تستطيع أن تنتظر وتتجدد وتعيد تأليف نفسها.

يتابع بطل الحكاية حياته بعد موته، بل إن الموت يقوم بإعادة تنظيم الأحداث والدلالات، فجأة يتحول حجاب الموت إلى كشف لا نهاية له، كأن الموت احد استعارات الحياة، أو كأنه الباب السري الذي تملك الحكاية مفاتيحه.

المسألة مع موت ياسر عرفات تقع هنا. الوطن الذي تأسس من الإرادة والذاكرة والكلمات هو الحكاية التي تتجدد بموت أبطالها. نحن في زمن حكائي بامتياز. الحكاية تقاوم التاريخ الذي

الياس خوري، روائي لبناني – بيروت

كتبه الطغاة بدم ضحاياهم. والضحية لا تملك سوى دمها تكتب به حكايتها. نحن أمام سردين مكتوبين بالدم نفسه. الصراع ليس بين الدم والحبر مثلما يوحي المنتصرون وهم يقدمون للضحية دروس الأخلاق. الصراع هو بين تأويلات الدم، وحين تدخل الضحية في فضاء التأويل تبطل أن تكون ضحية مطلقة، وتتحول طرفا في معركتها من اجل تأويل نفسها.

ترك ياسر عرفات البطولة لرفاقه الشهداء، وانصرف إلى تنظيم الحكاية، والمشاركة في كتابتها. هذا هو قدر المنعطفات التأسيسية في التاريخ، المؤسسون يشبهون الكتاب، من دون أن يحتلوا الكتابة. يعيشون في حقول الرموز والألغام. الكوفية كانت رمزا والبدلة الكاكية كانت موقفا، والمسدس في الأمم المتحدة كان لغما، والعودة إلى طرابلس بعد الخروج الكبير من بيروت كانت أسطورة. أما الطائرة التي سقطت في الصحراء الليبية فقد أوحت للرجل انه لن يموت. ورسخت في الوعي الفلسطيني حقيقة افتراضية تقول إن الرئيس لن يموت قبل ولادة الدولة الفلسطينية المستقلة.

في الحقول المترجرجة بين الألغام والرموز ولدت المعاني في التباساتها القصوى.

مرض الرجل وتهاوت صحته، كان في السجن من دون أن يكون سجينا، ثمّ دخل في الغيبوبة، كان كأنه يؤجل موته، أو يريد أن يجعل من مرضه وموته اللغز الأخير في حياة مليئة بالألغاز.

هذا ما يقترحه موت ياسر عرفات علينا. لحظة موته كانت لحظة عودته إلى موقعه الأصلي إلى جانب رفاقه الشهداء من مؤسسي حركة فتح. كأن أبواب الحكاية انفتحت، انزاحت صورة رئيس السلطة ، لتعود صورة الفدائي. غاب الرجل الذي اكتهل به العمر وعاد الطفل الذي يوزع القبلات على مودعيه لحظة ركوب الطائرة المروحية التي ستأخذه في رحلة الموت الأخيرة إلى باريس.

وحين جاء خبر موته، بعد التباسات المستشفى الباريسي والأقاويل والشائعات كانت مفاجأة الموت قد غابت. جعل العالم بأسره ينتظر الموت طويلا، أعدَّ الفلسطينيين لتقبله لأنه حدث قبل أن يحدث.

لكنني بكيت، عندما أقيم المأتم الوداعي في مطار باريس، واستمعت إلى نشيد "فدائي"، الذي صار السلام الوطني الفلسطيني، أحسست بالدموع، وفهمت أن الدموع لا تسقي الأحزان،

بل هي ماء الذاكرة . رأيت الفدائيين يتسلقون ثلج حرمون، ورأيت الفتى الذي كنته يرتجف بالخوف والشجاعة وهو يضمّ الألم الفلسطيني، كأنه يتابع حكاية " رجال في الشمس " بقرع عنيف على جدار الروح .

حضر الفدائي لحظة الغياب، ورأيت كمن يحلم صور فيلم جوليانو مير خميس المدهش : " أطفال ارنا " رأيت شباب كتائب شهداء الأقصى يمثلون مسرحياتهم، ثم يمثلون موتهم قبل أن يموتوا . كانوا يشبهون ذلك المهندس الشاعر الذي عانق الموت في جبل صنين عام ١٩٧٦ ، وهو يكتب قصيدة عن امرأة تشبه الحلم : " والسمك يتنفس من عينيك الخضراوين/ وجسدك يمسح هموم الموسيقى/ وأوجاع صمت المدافن المذهبة " . مات صديقي الفدائي محمد شبارو وهو يلهو بالموت، ويقترب منه بحثا عن معاني الحياة، تماما مثلما مات أطفال مخيم جنين وهم يلتهبون بحب الحياة ويمثلون موتهم، قبل أن تصبح شاشة السينما مقبرتهم الجماعية .

تصير الحكاية جزءا من نسيج الحياة، ويصير الفلسطيني ممثلا على خشبة مسرح معلق في الفراغ . وهذا لا علاقة له بالكذب، الكثيرون اتهموا عرفات بالكذب لأنهم عجزوا عن فهم الحيلة الفلسطينية من اجل البقاء . مخيمات تحمل أزقتها الضيقة أسماء القرى، ومفاتيح بيوت هدمت أبوابها، وذاكرة لا تتذكر الماضي بل تصنعه . وطن منسوج من كلمات وحنين، وحياة تأجلت فيها الحياة، ومرارة يغطيها الصمت والانتظار .

كيف تصير الكلمات وطنا؟ وكيف يتحول الفتى التائه فدائيا؟

يسمونه " الختيار " ، ولم يكن كهلا . كان مثل جميع الفدائيين يحمل أسماء عدة . أذكر، كان ذلك بعد الهزيمة الحزيرانية . كنا في أواخر تشرين الأول، ورغم لسعات برد الخريف البيروتي، كانت الشمس مثل قرص نحاسي، وكنت اشعر بالاختناق . الفتى الذي كنته أخذني إلى عمان، كانت تلك زيارتي الأولى إلى المدينة التي ارتسمت في ذاكرتي في وصفها مدينة بيضاء . الذاكرة تمكر بالناس أقول اليوم . لكنها في ذلك اليوم التشريني، الذي كانت شمسه تلتهب في رأس الفتى الذاهب من " الجبل الصغير " إلى مدينة الجبال السبعة ، قامت بتغيير حياتي . أقول ذلك اليوم تجاوزا، إذ لم أكن املك حياة كي تقوم ذاكرة ذلك اليوم التشريني بتغييرها . الأكثر ملاءمة أن أقول إنها صنعت حياتي، وفي هذا القول شيء من التجاوز أيضا، لكن ليس هذا هو الموضوع .

الموضوع أنني التقيت ب "الختيار" في مدينة السلط. أخذت سيارة تاكسي من أمام الفندق، وقلت للسائق إنني أريد الذهاب إلى الفدائيين. نظر اليّ الرجل مشفقا، ثمَ افهمني انه فلسطيني، وأنني محظوظ، إذ أن الكثيرين من سائقي التاكسي يعملون مع المخابرات، وانه كان من الممكن أن تنتهي بي مغامرتي الحمقاء في احد الأقبية، ثم أخذني إلى السلط، وتوقف أمام منزل صغير وقال هنا، قبل أن يمضي. وهناك استقبلني رجل سحرني من النظرة الأولى، وقال إن اسمه أبو جهاد. روى لي عن الثورة وأهدافها، و بدا كالمشفق على حماستي، ودلني على الطريق الذي صار طريقي، ولكن ليس هذا هو الموضوع.

فجأة جاء الموضوع، كنا نجلس أرضا و نشرب الشاي، حين دخل رجل بالكاكي يغطي رأسه بالكوفية الفلسطينية، وسمعت أبو جهاد يرحب به، و يسميه "الختيار"، وفهمت انه القائد، وأنهم يطلقون هذا الاسم على زعيمهم، وان هذا القائد يدعى أبو عمار، ثمَ عرفنا أن اسم أبو عمار الحقيقي هو ياسر عرفات، لنكتشف بعد ذلك بسنوات أن عرفات اسم مستعار أيضا، وان الرجل يدعى محمد عبد الرحمن عبد الرؤوف القدوة، ثمَ فهمنا انه يستحسن إضافة الحسيني إلى اسم العائلة، فالرجل الذي عاش جزءا كبيرا من شبابه بين غزة و القاهرة مقدسي وحسيني.

لكن ليس هذا هو الموضوع.

الموضوع هو الأسماء. السؤال الأول الذي واجهني بعدما أرسلني أبو جهاد الوزير إلى منزل سري في عمان، في انتظار الانتقال إلى معسكر التدريب في الهامة قرب دمشق، الذي كان يديره أبو علي إياد، هو سؤال الاسم. سألني شاب من غزة اسمر البشرة كان يعد سلطة غزاوية مليئة بالثوم والفلفل الأخضر، ولا زيت فيها، عن اسمي. كان الطعم الحار يحتلّ جميع مسام لساني، وشعرت بحاجة إلى السعال، لكني تمالكت نفسي خوفا من أن أبدو مضحكا، وخرج اسمي أشبه بالحشرجة. " هذا اسمك الحقيقي"؟ سألني، هززت رأسي بالإيجاب، لأستمع إلى ما يشبه البهدلة، صرخ الرجل في وجهي وافهمني انه نسي اسمي، وان عليّ أن أجد لي اسما مستعارا،

" لأننا نحمل جميعا أسماء حركية". لم اعرف ماذا أجاوب ولا كيف أجد اسما ملائما، فسكت، ونمت ليلتها من دون عشاء لأنني لم استطع ابتلاع تلك الكميات الهائلة من الفلفل الأخضر. وبعد ذلك اعتدت على المسألة واتخذت أكثر من اسم مستعار، على عادة تلك الأيام،

لكن ليست هذه هي المسألة.

المسألة هي الشعور بأن الحقيقي ليس حقيقيا، اسمك ليس أنت، هويتك مؤجّلة وكل شيء مؤقت. الاسم لا يُعلن إلا لحظة الاستشهاد. وحدهم الشهداء يملكون الحق في التماهي مع أسمائهم الحقيقية.

هذا العالم الذي يمتزج فيه الحقيقي بالمتخيل لا يشبه في شيء حمّى تغيير الأسماء التي ضربت الإسرائيليين بعد تأسيس دولتهم. الفدائيون لم يكونوا في وارد البحث في أسمائهم الجديدة أو المستعارة، عن جذور قديمة صنعتها الأسطورة، أو عن مشروع إيقاظ هوية خاصة بهم أو تأليفها. بل كانوا يهاجرون إلى الاسم المستعار، كي يمتلكوا حرية أن يكونوا ما يشاؤون. جذورهم في أقدامهم التي تتسلل إلى الأرض من اجل إيقاظها.

قد تكون لعبة الأسماء إحدى اكبر المفارقات الفلسطينية في زمن النكبة والمقاومة، ففي حين كان الأدب الفلسطيني يتمسك بالاسم ويخوض معركة الوجود الرمزية من خلال تأكيد الاسم الفلسطيني الذي حاولت النكبة محوه، كان الفدائيون يتخلون طوعا عن أسمائهم، كي يمتلكوا حرية الدفاع عن الاسم الفلسطيني.

لكن المنعطفات التي مرّ بها النضال الفلسطيني، من أيلول الأردني، إلى الحرب الأهلية المأسوية في لبنان، إلى تونس، إلى الانتفاضة الأولى، إلى السلطة الوطنية، وصولا إلى انتفاضة الأقصى، غيرت الكثير من المعطيات، وألغت ضرورة الأسماء المستعارة. ربما لأن شروط العمل السري انتفت في الحرب اللبنانية، أو لأن العودة الناقصة إلى فلسطين بعد أوسلو أعادت الاسم إلى حقيقته في العلاقة بالمكان والعائلة والعشيرة.

وحده أبو عمار بقي محتفظا بأسمائه الحركية، حتى موته لم يلغ أسماءه المتعددة، كأن التماهي بين الرجل والقضية صار بلا انفصام. أو كأنه كان يعلم في قرارة نفسه أن فلسطين لا تزال بعيدة رغم قربها وان عليه الاحتفاظ بجميع أوراق الاحتمالات.

أذكر حوارا جرى بيني وبين احد المناضلين الفلسطينيين القدامى. كان ذلك بعد توقيع اتفاق أوسلو، كنت معترضا على الاتفاق، مثل الكثيرين من الذين رأوا فيه تسرّعا، وعدم توازن، لكنني أصبت بالهلع وأنا استمع إلى تُهمة الخيانة تُلقى جزافا. قلت إنني لا استطيع أن ابتلع هذه

التهمة، لا لأنني أقدس هذا القائد بل لأنني اعلم من أين أتى. فالذي ساهم في صنع تجربة فتح، والذي أعاد فلسطين إلى الخريطة السياسية في العالم لا يمكن أن يُتهم بالخيانة. يمكن الاختلاف معه حول الكثير من الأمور، وحول تقدير الموقف، أما الخيانة فلن تكون في فتح أو في قائدها. ثمّ طرحت على محدثي سؤالا: " ماذا ستقولون حين سيقود عرفات انتفاضة ثانية "؟ قال إن هذا مستحيل، " لا يستطيع احد أن يلعب مع إسرائيل وأميركا ". أردت أن أقول، لكنني لم اقل، كنت في تونس للمشاركة في ندوة ثقافية، وكان ذلك قبل عودة أبي عمار إلى الوطن، أخذني يحيى يخلف لوداعه في مكتبه، وسمعت انه قال بأنه ذاهب كي يقاتل قي فلسطين وصدقته. حين رويت هذا للمناضل الفلسطيني القديم نظر اليّ بإشفاق، " لا تزال تؤمن بكلام رجال فتح و تصدّق "؟، قال.

صدقت لأنني اعرف هؤلاء الرجال، واعرف أن ياسر عرفات وصل إلى حدود التماهي المطلق مع قضية بلاده. رجل عاش كلّ حياته فدائيا، لم يعرف من ملذات الدنيا سوى النضال، و لم يرث سوى مواكب الشهداء. فتح هي أبو علي إياد وكمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار وأبو جهاد وأبو الهول وأبو إياد، هذه الحركة جعلت من قائدها وارثا للشهداء ومكمّلا لهم، وحمّلته عبء مسيرة تنوء دونها الجبال.

ياسر عرفات في سعيه إلى السلام، إي إلى هدنة طويلة مع محتلّ مسلح بتوازن دولي مال في شكل مطلق لمصلحة الولايات المتحدة، بعد سقوط جدار برلين، و بلا توازن إقليمي بسبب انحطاط النظام العربي وانهياره السياسي والأخلاقي، استند إلى حائطين:

الحائط الأول، هو التمسك بموقف مبدئي لا يفرّط في ثلاث: الدولة المستقلة ذات السيادة التي يجب أن تقوم على جميع الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧. والقدس كعاصمة لدولة فلسطين، وحقّ العودة، في وصفه حقا مبدئيا.

الحائط الثاني، هو الثقة بالطاقة النضالية التي لا تنضب في الشعب الفلسطيني.

وكانت الانتفاضة الثانية، وأعلن شعب صغير، يقف وحده، انه لن يستسلم. ألوف الشهداء والأسرى، بيوت تُهدم وزيتون يُجرف، وقائد الشعب يسجن في " المقاطعة "، في عملية بلطجة شارونية لا سابق لها، أميركا تقرر عزل الرئيس العربي الوحيد المنتخب من شعبه، وفلسطين تصمد مثل أسطورة. وعرفات لا ينحني للضغوط، يحمل أعوامه و كهولته و يقف صامدا، لذا

كان لا بد من قتله.

لماذا فشلت "الهدنة مع المغول"؟

قصيدة الشاعر أشارت إلى احتمالات الفشل بل حتميته. المسألة أننا لا نصدق الشعراء، رغم أن الحرب في فلسطين وعليها تدور بين الأسطورة التي تحولت تاريخا من الدم والجنون والتعصب، والتاريخ الذي صار في مقاومته شبيها بالأساطير. إنها حرب أرادها الإسرائيليون بلا نهاية. حرب لا مكان فيها للمهزوم ولحكايته، لذا فهي في جوهرها حرب على الحكاية. وعندما لاح السلام في مدريد، وكان شكلا مواربا لإعلان هزيمة العرب في جولة الصراع الكبيرة الأولى، رفضت إسرائيل القبول بهزيمة الفلسطينيين. قبلت في كامب دايفيد المصري ووادي عربة الأردني هزيمة العرب، لكنها، في اتفاق أوسلو الغامض، وفي سلسلة المفاوضات المعقدة والمملة مع الفلسطينيين، رفضت وجودهم. هذا هو المعنى الوحيد لمفاوضات كامب دايفيد، التي انتهت إلى عودة الصراع إلى النقطة الصفر. المطروح على الفلسطينيين هو الاختفاء، القبول بنظام أبارتهايد يسميه الإسرائيليون والأميركيون دولة فلسطينية. المطلوب هو الخضوع المطلق والتحول عبيدا في أرضهم. لقد تابع حزب العمل لعبة الخبث التي أسست الدولة الإسرائيلية على أنقاض شعب آخر، لكن الخبث الذي غطى التطهير العرقي عام ١٩٤٨ بمأساة المحرقة اليهودية التي ارتكبها الوحش النازي لم يعد ممكنا اليوم. كان لا بد لعمالي سابق وسفاح لاحق من أن يكشف المستور، ويستعيد الخطاب العنصري وينزع قشرة البراءة الكاذبة التي حاولت إسرائيل أن تتغطى بها. وجاءت جريمة الحادي عشر من أيلول في نيويورك لتطلق الخطاب العنصري من عنانه، والطريف أن مؤرخا إسرائيليا مثل بني موريس، كان أول من انقلب مبشرا بحرب الحضارات داعيا إلى وضع الفلسطينيين في أقفاص.

كيف اتخذت العرفاتية سماتها منذ تأسيس السلطة إلى انتفاضة الأقصى.

العرفاتية كتعبير لم تكن جزءا من القاموس السياسي في فتح أو في منظمة التحرير. التعبير تم نحته من قبل أعداء فتح في العالم العربي.

في فتح لم يكن هناك من عرفاتية، فالحركة التي انطلقت عام ١٩٦٥، كانت تعبر عن توازنات فلسطينية دقيقة، وكانت بمثابة جبهة وطنية تضم تيارات سياسية متعددة، تقودها لجنة مركزية تمثّل جميع تياراتها، ولم يكن عرفات سوى متقدم بين متساوين. العرفاتية لم تبدأ إلا في مرحلة

متأخرة، حين غيّب الموت أكثرية المؤسسين الذين قضى معظمهم اغتيالا برصاص إسرائيلي. يومها صار عرفات " الختيار" بحق، وانفرد بالقيادة في شكل كامل.

جاءت أوسلو وقيام السلطة بعد هذا الانفراد العرفاتي وأسست لما يمكن تسميته بازدواجية السلطة- الثورة. فبعد تأسيس السلطة الوطنية، التي لم تكن سلطة في شكل كامل، استمرت مؤسسات الثورة في العمل، رغم أن الثورة لم تعد ثورة في شكل كامل أيضا.

الذين يعرفون عرفات كانوا مطلعين على هاجسه العميق وخوفه من تجربة الحاج أمين الحسيني. كان عرفات لا يخشى شيئا قدر خشيته المصير الذي آلت إليه الهيئة العربية العليا بعد النكبة، لذا قرر أن لا يتخلى عن أي من الخيارات المتاحة.

بغياب ياسر عرفات تغيب تركيبة كاملة صنعت شكلا تنظيميا مرنا، مزج الدهاء بالحيلة. سر فتح أنها نجحت في مزج المتناقضات، وفي بناء إطار واسع يضم الجميع، التقت في صفوفها جميع تيارات الحركة الوطنية الفلسطينية، من قوميين ويساريين وإسلاميين متنورين، مشكلة جبهة- حركة مهمتها الوحيدة استعادة الحق في وطن، وإعادة الاسم إلى المسمّى.

لا يمكن فهم التباسات فتح وقدرتها على التحول إطارا فلسطينيا جامعا، من دون فهم شخصية ياسر عرفات، التي جسّدت كلّ التلاوين السياسية والثقافية ووحدتها، وجعلتها حركة تتسع للمبادرات، وتسمح بالتيارات، وتنضبط في إيقاع واحد قاده الثلاثي عرفات-أبو جهاد-أبو إياد، قبل أن يصير عرفات هو الثلاثة معا.

حار الجميع في فهم دهاليز فتح وأشكالها التنظيمية المتعددة. ومثل كل شئ حيّ، كان سرّ الحركة بسيطا ويتألف من كلمة واحدة هي فلسطين. من عمق المرارة والألم بنت فتح نفسها وصارت قبيلة القبائل، وتنظيم التنظيمات، تحت قيادة " الختيار" ، الذي عرف أن سره في نضاليته التي لا تتعب. فكان أوّل الفدائيين، وأوّل المقاتلين.

السؤال الكبير في مسيرة الرجل، سوف يتمحور حول أعوام قيادته للسلطة الفلسطينية. السلطة نشأت كثمرة للانتفاضة الأولى، وفي ظلّ اتفاق غامض وملتبس. اتفاق أوسلو لم يرسم المستقبل الفلسطيني، بل تركه رهن الصراعات وموازين القوى. لذا بنى عرفات سلطته في شكل مزدوج: فهي سلطة منتخبة ولها قوانينها الأساسية من جهة، وهي سلطة ثورية في مرحلة تحرر وطني لم تنجز بعد، من جهة ثانية.

هذه الطبيعة المزدوجة للسلطة، أثارت الانتقادات، وسمحت لشبح الفساد بالتسلل إلى الكثير من البنى السلطوية. غير أن هذه الازدواجية كانت جزءا من المرحلة، ولم يكن لها أن تستمر لولا قدرة عرفات على اختزال المؤسسات في شخصه، وعلى تجسيد مقاومة الشروط الأميركية على الفلسطينيين.

الانتفاضة الثانية كانت الإطار الذي جسّد هذه الازدواجية وكشف حدودها في آن معا. فلقد تدرجت الانتفاضة وتلونت بأشكال مختلفة، وكانت عبارة عن تواطؤ مركّب بين القيادة والتنظيمات النضالية المختلفة. وإذا كان عرفات قد جسّد في شخصه وقيادته اليومية للأمور هذا التواطؤ المعلن، فانه دفع على المستوى الشخصي الثمن حتى الموت. لن ادخل في معطيات اجهلها، ويجهلها الجميع حول موته الغامض الذي يشبه الاغتيال، لكن السجن الطويل في "المقاطعة" كان سما شارونيا أميركيا شربه الزعيم الفلسطيني حتى الثمالة.

لم يأت أوان تقييم الانتفاضة بعد، فهي مستمرة وستستمر بأشكال مختلفة، لكن ربما جاء وقت إعادة النظر في بعض أشكالها، وخصوصا في استهداف المدنيين الإسرائيليين خلف الخط الأخضر، التي استخدمها الإسرائيليون والأميركيون ذريعة في محاولتهم تحطيم التفوق الأخلاقي الفلسطيني. إعادة النظر ليست خضوعا لضغوط خارجية، بل هي قضية أخلاقية مركزية، فالنضال الفلسطيني هو دفاع عن الحياة وليس بحثا عن الموت، وهو يقدم للإسرائيليين أيضا مخرجا من جنون الموت الذي صنعته الصهيونية. لكن ليست هذه هي المسألة الآن. قضية الأساليب والأشكال النضالية في حاجة إلى بحث خاص، والى مناقشة علنية يشارك فيها جميع أطراف الحركة الوطنية الفلسطينية.

المسألة اليوم هي دلالات موت عرفات.

هل صحيح أن العقبة الأخيرة أمام السلام قد أزيحت؟ هل الفلسطينيون كانوا العقبة؟ أم أن المسألة مرشحة للعودة إلى نقطة البداية، لأن العالم سوف يكتشف من جديد أن من لا يريد السلام هو من يعتقد انه يستطيع الحصول عليه من دون تفكيك المستوطنات والجدار، والانسحاب من القدس، و الاعتراف بحق الفلسطينيين في وطن.

الغياب هو الباب الجديد للحكاية العرفاتية . من المرض الغامض الذي فرض نقل الزعيم

الفلسطيني إلى المستشفى الباريسي، إلى لحظة اختيار القبر، إلى النعش الذي صار مثل سفينة وسط بحر الناس الذين استقبلوا جثمان القائد الفلسطيني وجعلوا قبره الحقيقي في وسطهم.

ماذا يعني دفن جثمان زعيم الشعب الفلسطيني في "المقاطعة"؟

هل كان الأمر مجرد مصادفة أم حلا وسطا بين رغبته في أن يوارى في القدس، إلى جوار المسجد الأقصى، وبين رغبة الإسرائيليين في دفنه في غزة؟ أم أن المسألة تحمل دلالات رمزية تتوّج أسطورة عرفات، جاعلة منها احد عناصر الحكاية الفلسطينية؟

الشعب الذي احتضن جثمان قائده، معلنا أن الموقف الوطني ليس سوى محصلة إجماع الفلسطينيين، كان يعرف أن خيار "المقاطعة" الذي يدمج السجن بالمؤقت، هو الأكثر ملاءمة لمزاج عرفات الذي يمثّل شعبا يعيش منذ ستة وخمسين عاما بين المؤقت الذي يحاول الحلم النضالي كسره، والسجن الكبير الذي يفرضه الاحتلال. أبو عمار يقيم بعد وفاته قي المكانين معا، واضعا أمام القيادة الفلسطينية الجديدة مهمة كسر أبواب السجن، كي يكون الخروج من مؤقت الاحتلال ممكنا.

في هذا المكان سُجن قائد الشعب الفلسطيني. ياسر عرفات لم يكن مُحاصرا في "المقاطعة"، كما يقول البعض، بل كان تحت إقامة جبرية لا اسم لها سوى السجن. زعيم الشعب الفلسطيني اختار البقاء في أرضه، وكان على استعداد لدفع الثمن مهما كان باهظا. في أيلول ٢٠٠٢ قام جيش الاحتلال بتهديم "المقاطعة"، محولا مقر الرئاسة الفلسطينية أنقاضا وسجنا. هناك بين الأمكنة المدمرة، وفي شروط وحشية عاش عرفات أعوامه الأخيرة معلنا تماهيه المطلق مع ألوف السجناء والمطاردين من المناضلين الفلسطينيين، رافضا الخضوع للاملاءات الأميركية والإسرائيلية.

هذا يعني أن عرفات سيبقى سجينا، وان تحريره من السجن، ومواراته في القدس لن يتما قبل تحرير الأرض من الاحتلال.

هذه الدلالة تندغم بدلالة لا تقل عنها رمزية، إنها المؤقت. وحكاية الشعب الفلسطيني مع المؤقت لا نهاية لها. إنها الحكاية الفلسطينية بامتياز. شعب كامل يعيش منذ النكبة عام ١٩٤٨ في مؤقت المخيمات، ويموت في المؤقت، ويدفن في المؤقت. لقد نظّم ثلاثة أجيال من الفلسطينيين حيواتهم في عذابات المنافي. صار مؤقتهم علامة غربتهم وشكلا لارتباطهم بالأرض التي طُردوا

منها. عاشوا بين ذاكرة الخراب التي صنعتها النكبة والهزائم والعجز والخيانات، وبين حاضر الموت الكثير الذي لم يتوقف منذ لحظة ولادة حلمهم الثوري.

المؤقت الفلسطيني له أسماء عديدة:

انه اللجوء، ولا ملجأ آمنا، من أيلول الأسود، إلى تل الزعتر، إلى صبرا وشاتيلا، إلى جنين إلى مخيمات غزة، إلى آخر ما لا آخر له.

وهو الغربة، حيث يصير الإنسان غريبا في أرضه، مثلما هو حال الفلسطينيين في وطنهم الذي فقد اسمه فصار يُدعى إسرائيل، وافقدهم اسمهم بحيث صاروا عرب ارض إسرائيل.

وهو المنفى في بلاد الله الواسعة، حيث صارت اللغة بديلا للأرض وعادت القصيدة بيتا وتحولت الحكاية تاريخا لمن طُرد من ارض التاريخ.

ومثل كلّ الملاحم المأساوية في التاريخ امتزج القدر بالخطأ، وكان على اللغة تصحيح أخطاء الشهداء، وصناعة فضاءات الحرية داخل جدران السجون، وصياغة الحلم من نثار الكوابيس.

بين مكانين متشابهين: مؤقت يشبه السجن، وسجن أريد له أن يكون مؤقتا ليعيش الشعب الفلسطيني. أولاد يولدون، رجال ونساء يقاتلون، شعراء يكتبون موسيقى العلاقة بين الحياة والموت، ومنفيون يتابعون التيه في عالم تصحر فيه كل حسّ إنساني.

والحكاية مستمرة وطويلة. التحدي يصنعه شعب ينقسم إلى ثلاث فئات: الشهداء والسجناء والمقاومون. وكل انقسام آخر حول التسوية، التي لا وجود لها إلا في الوهم، هو أكثر من حماقة لأنه يقترب من الخيانة.

ولكن ماذا بعد الغياب؟

الافتراض بأن ياسر عرفات هو الشعب الفلسطيني، وان غيابه سوف يؤسس لمرحلة جديدة من التيه والضياع، وان أمراء الحرب سوف يحتلون السياسة في وطن تحوّل أنقاضا، هو مجرد وهم.

أما الاقتراض الآخر بأن القيادة الجديدة سوف تقبل وترضخ، وتتحول أداة صغيرة في يد الاحتلال من اجل إشعال حرب أهلية فلسطينية، تكون مقدمة الانحلال والموت، فهو لا يقلّ غباء عن الافتراض الأول.

ما يتناساه الجميع، هو أن التجربة الفلسطينية، رغم النواقص والفساد والمشكلات التنظيمية

والسياسية الكبيرة، باتت تمتلك تاريخا، ورسمت ثوابتها، ولم يعد من الممكن الرجوع إلى الوراء. هذه هي المفاجأة، التي عبّر عنها نضج عملية انتقال السلطة، والوحدة التي أعادت فتح رسمها عبر الوصول إلى مرشح واحد للحركة وتفادي الانقسام. واعتقد أن أول الذين فوجئوا قد يكون ياسر عرفات نفسه. فالحدود الوطنية التي رسمها النضال الوطني الفلسطيني و تجسدت في صمود " المقاطعة " خلال الحصار الطويل، صارت خطا لا يستطيع احد التنازل عن ثوابته، وسوف تحدد لزمن طويل استراتيجية العمل الوطني.

ولكن أين الأفق؟

لا يمكن قراءة فلسطين في معزل عن الواقع العربي الذي صار في حضيض الانحطاط ، أو عن هذا التماهي المطلق بين اليمين العنصري الإسرائيلي، والسياسة الأميركية في المنطقة، خصوصا بعد التخبط المستمر في العراق.

لا رهانات سريعة، فلسطين لن تتأسس إلا في نضال طويل، وقطعة، قطعة، ووسط بحار من الألم والعذاب.

لذا ففلسطين أمام مهمتين:

الأولى تنظيمية، وتفترض التمسك بالمؤسسات، والخضوع للقوانين، والإصرار على الخيار الديمقراطي، رغم كلّ الصعوبات. الشرعية السياسية التي تمثلها منظمة التحرير وحركة فتح يجب رفدها بشرعية ديمقراطية. فالمرحلة صعبة، وهي في حاجة إلى الحكمة والمبدئية في آن معا.

الثانية سياسية، وجوهرها ليس التمسك بالثوابت فقط: الدولة المستقلة، القدس، واللاجئين، بل التمسك بالسر الفتحاوي، الذي يبني جبهة وطنية تضم جميع إطراف الحركة الوطنية، وتؤكد التنوع في الوحدة.

عرفات في سرّ فلسطين، وسرّ فلسطين حكاية لا تزال في بداياتها. لذا لن نقول وداعا يا أبا عمار، بل سنقول مع الفدائيين: من الأول.

وسيكون الأول حين تقترب القدس، ويدفن القائد في المدينة التي ناضل طوال حياته من اجلها.